15

تأملات في كتاب "صنعة الشعر "
لخورخي لويس بورخيس

أ د أحمد بقار
جامعة قاصدي مرباح ورقلة
الجمهورية الجزائرية
A HMED
BEGGAR

summary :

This research paper tagged with (Reflections on the Craftsmanship of Poetry by Jorge Borges) aspires to layits hand on the most important of what came in this important book of the Greek critic and poet Jorge Borges, which I foundinspired by thisterm (craftsmanship) fromour Arab criticalheritage, even if itwas not indicated. A statement or a hint, and hisdeepening in the study of poetry and its taste ledhim to the necessity of mergingbetween the novel and poetry, and hegoesfurtherthanthatthat the novelisgoing to disappear if itdoes not hasten to do so.

Keywords: reflections – the craft of poetry – Jorge Borges

ملخص :

تطمح هذه الورقة البحثية الموسومة ب (تأملات في كتاب صنعة الشعر لخورخي بورخيس) أن تضع يدها على أهم ما جاء في هذا الكتاب المهم للناقد و الشاعر اليوناني خورخي لويس بورخيس ، و الذي وجدته يستوحي هذا المصطلح (صنعة) من تراثنا النقدي العربي القديم و إن لم يشر إلى ذلك تصريحا أو تلميحا ، و لقد أوصله تعمقه في دراسة الشعر و تذوقه إلى وجوب الاندماج بين الرواية و الشعر ، و يذهب إلى أبعد من ذلك أن الرواية سائرة إلى زوال و اندثار إن لم تسرع إلى ذلك .

الكلمات المفتاحية : تأملات – صنعة الشعر – خورخي بورخيس

تفطن نقادنا العرب في زمن متقدم و منهم أبو هلال العسكري ، أن الشعر صناعة في كتابه القيم " الصناعتين" ، و أبان أننا لا نستطيع أن نمنح أي صناعة أو صانع هذا المسمى الذي يوزن بميزان الذهب ، إلا لمن أتقن مهنته و يسهر على جودتها و التفنن فيها ، فبهذا يستحق أن نسميه صانعا ، و في محك العمل الجاد

يتبين الجاد الجيد من الدعي الدخيل ، و أكثر ما شبهوا صناعة الشعر و النثر بعمل الصائغ ؛ لأن هذه الصنعة لا يجوز فيها الخطأ ، فكل خطأ يكلف صاحبه الكثير في ميزان المال ، لذلك أسماه ابن طباطبا العلوي ب " عيار الشعر " ؛ و لأن الشعر و هزاته و أثره في النفوس و الأرواح و الأفكار جليلة الأثر ، كبيرة القيمة ، كانت قيمته حذو قيمة الذهب ، فيقاس عياره بالقيراط ، و القيراط يعلو و يسفل بحسب قيمة المعدن و نفاسته ، و جودة صنعته و إخراجه .

و لقد تنبه الغرب في أيام الناس هذه إلى هذا المسمى النسيب إلى العرب ، فظهر هذا المصطلح عند الناقد و الشاعر اليوناني " لويس خورخي بورخيس " في كتاب تحت مسمى (صنعة الشعر) ، و كأني به استوحى هذا المصطلح من نقادنا القدامى ، و كتابه هذا عبارة عن ست محاضرات ألقاها أمام الطلبة في جامعة هارفارد في العام 1967 م ضمن برنامج (نورتون لكتشرز) (Norton Lectures) ، لكنه بناها على رؤية الشعر من زاوية عصره ، و جاءت عناوينها كالآتي :

- لغز الشعر
- الاستعارة
- فن حكاية القصص
- موسيقى الكلمات و الترجمة
- الفكر و الشعر
- معتقد الشاعر

الذي يشدك إلى هذه المحاضرات أنها جاءت من وحي عصارة تجربة بورخيس ، و لم يذيلها بهوامش ، إلا ما جاء من مخزون أفكاره و رؤيته حول الشعر ، أضف إلى ذلك أنه كان أعشى ضعيف البصر .

إذن كل الذين اقتربوا من الشعر أو عشقوه أو تذوقوه أو نقدوه أو مارسوه آمنوا أنه صنعة ، و لنبدأ مع خورخي من البدء ، الذي يرى بعد تجربة كبيرة مع الشعر و قد بلغ من العمر سبعين سنة ، و يقف مشدوها ليقول أن الشعر لغز و لا يمكن فك شيفرته المحيرة : " لغز الشعر و التفخيم هنا يقع ، بكل تأكيد ، على الكلمة الأولى (لغز) و هذا قد يدفعكم إلى التفكير في أن اللغز هو الأهم ، أو يمكن أن تفكروا ، و

هذا سيكون أسوأ ، في أنني قد خدعت نفسي بالاعتقاد ، بطريقة ما ، بأنني اكتشفت المغزى الحقيقي للغز ، و الحقيقة أنه لا وجود لدي لأي كشف أقدمه ، لقد أمضيت حياتي و أنا أقرأ ، و أحلل ، و أكتب (أو أحاول أن أكتب) و أستمتع . و قد اكتشفت أن هذا الأمر الأخير هو الأهم ، و متشربا بالشعر ، توصلت إلى نتيجة نهائية حول المسألة . صحيح أنني ، في كل مرة واجهت فيها الصفحة البيضاء ، عرفت أنه علي أن أعود من جديد إلى اكتشاف الأدب بنفسي ، و أن الماضي لا ينفعني في شيء ، و لهذا لا يمكنني ، كما قلت أن أقدم لكم سوى ترددي و حيرتي ، لي من العمر حوالي سبعين سنة ، و قد كرست الشطر الأكبر من حياتي للأدب ، وليس في استطاعتي أن أقدم إليكم مع ذلك سوى شكوك " [1] ، بعد كل هذا العمر يقف بورخيس مترددا في أن يقدم فهما صحيحا للشعر ، يرى فيه ماردا يصعب الاقتراب منه ، يكفي قوله : و لهذا لا يمكنني ، كما قلت أن أقدم لكم سوى ترددي و حيرتي ، إذن محاضرته الأولى بناها على الشك و الريب ، و عدم الوصول إلى اليقينيات في صنعة الشعر ، و من الحكمة – و هو الخبير في هذا الباب – أن يقول بهذا الرأي .

أما عن المحاضرة الثانية فخصصها للحديث عن الاستعارة التي أصبحت قرين الشعر المعاصر ، فحسنُ الاستعارة من حسن الصنعة ، و يقر في البدء أنه أخذها من الصينيين القدامى أو كما أسماه الشرق القديم الذين يطلقون على العالم تسمية (العشرة آلاف شيء) أو (العشرة آلاف كائن) ، يوضح قائلا : " أعتقد أننا نستطيع أن نتقبل ، بحذر شديد ، تقدير العشرة آلاف . من المؤكد أن هناك أكثر من عشرة آلاف نملة ، أو عشرة آلاف إنسان ، أو عشرة آلاف أمل ، أو عشرة آلاف خوف أو كابوس في العالم . و لكننا إذا ما تقبلنا العدد عشرة آلاف ، و إذا ما فكرنا في أن كل الاستعارات هي اتحاد شيئين مختلفين ، فإنه يمكن لنا عندئذ ، إذا ما أتيح لنا الوقت ، أن نتوصل إلى عدد هائل من الاستعارات المحتملة . لقد نسيت ما تعلمته من الجبر ، و لكنني أعتقد أن الكمية ستكون 10000مضروبة في 9999 مضروبة في 9998 ، إلى آخره . من الواضح ، أن كمية التوليفات المحتملة ليست غير نهائية ، لكنها تذهل المخيلة . و هكذا يمكن لنا أن نفكر : لماذا يتوجب على شعراء العالم

كله ، و الأزمنة كلها ، أن يلوذوا بمجموعة الاستعارات نفسها ، بينما يوجد كل هذا القدر من التوليفات المحتملة ؟ "[2]

، و لك أن تربط هنا بين عنوان المحاضرة الأولى و الثانية ؛ في الدلالة على أن الشعر لغز ، و نستند إلى قوله متحدثا عن التوالد الجميل للاستعارة : (أن كمية التوليفات المحتلمة ليست غير نهائية ، لكنها تذهل المخيلة) ، و لا يخفي استغرابه من ركون الكثير من الشعراء للجاهز و عدم الغوص في ثنايا هذه التوليفات و الاستنارة بالجديد غير المألوف ، و يعطينا مثالا عن استعارة قد نراها من زوايا متباينة : " فلنر الآن مثلا آخر أقل شهرة : (النجوم تنظر إلى أسفل) . إذا ما تبينا التفكير المنطقي بصرامة ، فسنجد هنا الاستعارة نفسها . لكن تأثيرها في مخيلتنا مختلف تماما . فجملة (النجوم تنظر إلى أسفل) لا توحي لنا بالرقة ، بل ربما هي تدفعنا إلى التفكير في أجيال و أجيال من بشر ينهكون أنفسهم دون حدود ، بينما النجوم تنظر إلى أسفل بنوع من عدم اللامبالاة السامية "[3] ، ربما الناس لدهور رأوا الجمال في لفظة تنظر ، لكنهم نسوا الوقوف عند لفظة إلى أسفل ، ثم عرج إلى الحديث عن أنماط الاستعارة و مثل لها بأمثلة من الأدب الإنجليزي و اليوناني و الأرجنتيني و الأمريكي و الأسكندنافي و هي : نمط الحياة كحلم ، و نمط الجمع بين النوم و الموت ، و نمط المعركة و النار ، و يضرب مثالا عن الاستعارة من نمط الحياة كحلم و الذي يراه من زاويته مبهرا و هو للشاعر الأمريكي (كومينغز commings) ، و هو من أربعة أبيات لكنه اكتفى بذكر ما يحفظه منها (face . brighter than a God’s terrible spoon) ، (وجه الرب الرهيب ، أكثر لمعانا من ملعقة) ، و المدهش هو استعمال ملعقة في حين كان المتوقع استعمال (سيف ، ترس ، شمس ، نور شمعة) أو بشيء لامع تقليديا ، فكانت له ملعقته ليبدو شعره جديدا ، ثم يكمل لتتضح الصورة (coollects the image of one fatal word) (يلتقط صورة كلمة مشؤومة) ، و يرى من زاوية نظره أن هذا البيت الثاني أفضل و أزاح ما عكره بيت الملعقة ؛ لأنه ظل حائرا في أمرها و لم يشأ الإكثار من تقليبها ، و المقطع كامل هو هكذا :

وجه الرب الرهيب ، أكثر لمعانا من ملعقة

تلتقط صورة كلمة مشؤومة

و هكذا هي حياتي – المعجبة بالشمس و القمر –

تشبه شيئا لم يحدث

فيعلق بقوله : " (تشبه شيئا لم يحدث) ، هذا البيت يتضمن بساطة نادرة ، أطن أنه ينقل إلينا جوهر الحياة كحلم أفضل من أولئك الشعراء الأوسع شهرة ، شكسبير ، فالترفون ، دير فوغلويد" [4] ، إلى أن يخلص في النهاية إلى نتيجتين يرى أنهما مهمتان من زاوية نظره " النتيجة الأولى هي أن هناك ، بالطبع مئات و حتى آلاف الاستعارات التي يمكن اكتشافها ، و جميعا يمكن أن تحال إلى عدد قليل من الأنماط الأساسية ، و لكن ليس في هذا ما يدعونا إلى القلق ؛ لأن كل استعارة تكون مختلفة ، و النتيجة الثانية هي أنه ثمة استعارات – مثل (شبكة الرجال) أو (طريق الحوت) – لا يمكن لنا إحالتها إلى أنماط محددة " [5] .

ثم يطالعنا خورخي بورخيس في محاضرته الثالثة – و التي سنتوقف عندها – متحدثا عن فن حكاية القصص ، مشيرا إلى أن الشعر ليس فقط موسيقى و أوزان و أنغام ليس إلا ، بل في النثر شعرية لا تقل أهمية عن الشعر في حد ذاته ، و ذكر أمثلة من الملاحم اليونانية القديمة ، و يقول معلقا عن كلمة شاعر : " و لكن المؤسف أن كلمة (شاعر) قد انقسمت إلى اثنين . فعندما نتكلم اليوم عن شاعر ما ، لا نفكر إلا في شخص ينطق بنغمات غنائية و محكمة التناسق من نوع (with ships the sea was sprinkled far and nigh Lake stars in heven)" وردز وورث (بسفن ، كان البحر ملطخا هنا و هناك ، كأنها نجوم في السماء) ... بينما كان القدماء ، عندما يتكلمون عن شاعر – " خالق " – لا يعتبرونه مجرد مُطلِق لهذه النغمات الغنائية السامية و حسب ، و إنما يرون فيه كذلك راوية حكايات . حكايات يمكننا أن نجد فيها كل أصوات البشرية : ليس أصوات الغنائية ، و التأمل ، و الكآبة فقط ، و إنما كذلك أصوات الشجاعة و الأمل ، هذا يعني أنني سأتحدث عما أفترض أنه أقدم أشكال الشعر : الملحمة " [6] ، و عندما يتحدث عن الملحمة أو الأوديسة أو ألف ليلة

وليلة فإنه يبتعد في القراءة إلى البحث عن شعرية الانزياح و الابتعاد عن النهايات التي نرجوها من القراءة العادية ، أو عن نهاية البطل ، " و عندما نلجأ إلى ألف ليلة و ليلة ، نجد أن النسخة العربية من الأوديسة ، أظن أن ما نشعر به هو الافتتان بالبحر ، سحر البحر ، ما نشعر به هو ما يكشف لنا عنه الملاح ، فمثلا : ليست لديه حماسة للقيثارة ، و لا لتوزيع الخواتم ، و لا لمتعة المرأة ، و لا لعظمة العالم . إنه يبحث عن أعالي التيارات المالحة و حسب ، و هكذا تكون لدينا القصتان في قصة واحدة ؛ يمكننا أن نقرأها على أنها عودة إلى البيت ، و باعتبارها قصة مغامرات ، ربما هي أروع قصة مغامرات كُتبت أو غُنيت " [7].

و يشير في زاوية أخرى بقوله : " إذا ما فكرنا في الرواية و الملحمة ، فإننا نجد أنفسنا منقادين إلى إغواء التفكير في أن الفرق الأساسي بينهما يقوم على الفرق بين الشعر و النثر ، بين غناء الشيء أو عرضه . لكنني أفكر في أن هناك فرقا أكبر . فالفرق يستند في الواقع إلى أن المهم في الملحمة هو البطل : إنسان هو نمط لكل البشر ، بينما جوهر معظم الروايات ، كما يشير مينكين "Mencken " ، يستند إلى إخفاق إنسان ، إلى انحطاط الشخصية و ترديها " [8].

و يحاول أن يتنبأ باندماج الرواية بالشعر في آخر محاضرته ؛ لأنه يحس أنه أصبح أمرا محتما ، و يرى أنه مع المدى البعيد سيصبح أمرا محققا ، و إنه و إن تحقق سيكون فتحا عظيما ، و أن الرواية إن لم تحدث هذه التوأمة فإنها آخذة إلى زوال لا محالة ، " لكن هناك شيئا مرتبطا بالحكاية و القصة ، شيء يبقى و يستمر على الدوام . لا أظن أن البشر يتعبون أبدا من سماع و حكاية القصص ، احتفاظنا بمتعة إضافية من كرامة الشعر و جدارته ، فإن شيئا عظيما لا بد أن يحدث عندئذ " [9].

إن الشعر بالمحصلة صنعة و تجريب ، و كل صانع يحتاج إلى التجريب قنطارا و زيادة ليمنح صنعته جمالا و رواء و تميزا ، حتى الصناع أنفسهم و إن كانت صنعتهم واحدة ، فكلٌّ يجرب من زاويته لتبدو صنعته أجود ، و إن خضعت الصنعة لهذه المحبة و هذا التفاني فإنها ستبقى خَضِرَةً ندية .

[1] / خورخي لويس بورخيس:صنعة الشعر .تر:صالح عثماني.دار الهدى.دمشق.طبعة1. 2007 . ص 13 . 14

[2] / المصدر نفسه : ص 40

[3] / المصدر نفسه : ص 42

[4] / المصدر نفسه : ص 53

[5] / المصدر نفسه : ص 59

[6] / المصدر نفسه : ص 67 . 68

[7] / المصدر نفسه : ص 70

[8] / المصدر نفسه : ص 72 . 73

[9] / المصدر نفسه : ص 79